تحالف الاضداد : العراق وايران . . بين الأمس واليوم

ما الذي تغير ليجعل من التطبيع وربما التحالف ضرورة ؟

نشر الملف العراقي (العدد 17- ايار 1993) افتتاحية لكاتب هذه السطور بعنوان : "تحالف الاضداد: العراق وايران اساس لنظام اقليمي جديد"، تعرض لمقومات التحالف العراقي-الايراني والعقبات امام تحقيق ذلك التحالف.

منذ كتابة تلك الافتتاحية، قبل اكثر من عامين، شهدت العلاقات العراقية الايرانية صيفا وشتاء، بلغ حد التحشيد العسكري والغارات الجوية وتبادل الاتهامات وثم العودة مجددا لحديث الوئام والمصالحة.

ما الذي تغير في ايران ليجعل التحالف مع العراق اليوم ممكنا ؟

كان رهان الولايات المتحدة واضحا منذ اعلانها سياسة الاحتواء المزدوج بانها لاتتوقع تحالف الاضداد- العراق وايران. ومن هذا المنطلق صعدت واشنطن تحديها للطرفين. ونظرة الى بعض ما قام به او ذكره المسؤولون الامريكان يوضح ذلك:

- اعلان كلينتون في مطلع ايار 1995، ومن على منبر ايباك- اللوبي اليهودي الامريكي-حظر التعامل الاقتصادي مع ايران، بما في ذلك الغاء صفقة نفطية تزيد قيمتها عن 800 مليون دولار لشركة كونكو الامريكية مع ايران، ومنع الشركات الامريكية من استيراد النفط الايراني، والضغط على حلفاء امريكا وحتى روسيا لنهج ذات السلوك. الامر الذي يعني عمليا اعلان الحرب الاقتصادية على طهران.

- اوضح وليام بيري، وزير الدفاع الامريكي، (20/5/95) "ان سجل العراق العدواني معروف بصورة جيدة للعالم، ونحن قلقون بقدر مساو من السلوك الاخير لايران. ففي سياق تعزيز الوجود العسكري على جزر صغيرة في الخليج قرب مضيق هرمز، الذي تمر عبره 90 في المئة من صادرات النفط الخليجية، اضافوا (الايرانيون) الافا عدة من القوات واسلحة بينها مدافع وصواريخ مضادة للسفن وحتى اسلحة كيماوية. وزاد الوضع تعقيدا ان ايران جلبت غواصات ذات قدرة على زرع الالغام وزوارق دورية مزودة بصواريخ مضادة للسفن". واشار الى ان العراق وايران هما بين اكبر القوى العسكرية في الشرق الاوسط، وقال: "نرى انه يوجد خطر حقيقي لوقوع مزيد من النزعات العسكرية في هذه المنطقة".

- ويؤكد التقرير الذي نشرته وزارة الدفاع تحت عنوان "الاستراتيجية الامنية للولايات المتحدة في الشرق الاوسط" (ايار 1995) ان "مصلحة امننا القومي العليا في الشرق الاوسط هي الحفاظ على تدفق النفط من دون

اعاقة من منطقة الخليج الى الاسواق العالمية باسعار مستقرة. ويصف التقرير ايران والعراق بانهما "اشد الاخطار" على التدفق الآمن للنفط من منطقة الخليج الى الاسواق العالمية ويقول: "انهما لايشكلان تهديدا عسكريا مباشرا لكل منهما بمفرده وحسب، ولكن الديناميكية الناتجة عن تنافسهما على الهيمنة الاقليمية تزيد بالنسبة الى كل منهما قيمة السيطرة عن طريق الابتزاز والتهديدات ايضا. وعلاوة على ذلك، هناك خطر كبير من امكان امتداد تنافسهما الى بلدان شبه الجزيرة العربية".

وقال مساعد وزير الدفاع الامريكي جوزيف ناي الذي اذاع التقرير ان الولايات المتحدة تنفق الان اكثر من 400 مليون دولار سنويا على القوات المخصصة لسياسة "الاحتواء المزدوج" ضد ايران والعراق في المنطقة.

- وقبل ذلك دعا (أ ش أ،11/3/1995) رئيس مجلس النواب الامريكي نيوت غنغريتش الى العمل من اجل تغيير الحكم الايراني بالقوة، الا انه لم يفصح عن الاسلوب او الوسائل التي يتعين على الحكومة الامريكية اتباعها لتحقيق هذه الغاية، وما اذا كان يمكن ان تشمل القيام بعمل عسكري. وقال غنغريتش الذي كان يتحدث الى مجموعة من القادة العسكريين وضباط المخابرات الى تغيير النظام الحاكم في ايران بالقوة هو الخيار المعقول الوحيد الذي يمكن للاستراتيجية الامريكية اعتماده على المدى الطويل.

واضاف ان المطلوب وضع استراتيجية صلبة لمكافحة ما أسماه بـ "الشمولية الاسلامية" التي من شأنها ان تؤدي الى تغيير النظام الحالي في ايران.

- ذكرت صحيفة النيويورك تايمز (5/1/1995)، نقلا عن مسؤولين اسرائيليين وامريكيين رفيعي المستوى ان ايران قد تحصل على السلاح النووي بعد خمس سنوات وتشكل بالتالي تهديدا كبيرا للمنطقة.

وافاد مسؤولون اسرائيليون لم تأت الصحيفة على ذكر اسمائهم انه في حال لم توقف ايران برنامجها النووي الحالي فان الدولة العبرية قد تضطر الى بحث احتمال مهاجمة المفاعلات النووية في ايران على غرار الغارة التي شنتها اسرائيل على مفاعل عراقي في العام 1981.

وصرح مسؤولون اسرائيليون ردا على اسئلة الصحيفة ان البرنامج النووي الايراني اصبح يعتبر اكبر تهديد لبلادهم.

- وفي خطاب لرابين (8/5/1995) امام المؤتمر السنوي لمنظمة "أيباك" اي اللوبي الاسرائيلي، بحضور الرئيس كلينتون، صب رابين كل هجومه على ايران التي ترعى الارهاب والحركات الاصولية المتطرفة من الجهاد الاسلامي الى حماس والى حزب الله. وقال "ان ايران تمنع الفلسطينين من الاتفاق على وقف الارهاب وتشجع الحركات الاسلامية المتطرفة في الانظمة العربية المعتدلة في محاولة لمنعها من دعم السلام. . " واعتبر ان حصول ايران من

روسيا والصين على المفاعلات النووية قد يؤدي "الى تطورات فظيعة ليس فقط في الشرق الاوسط بل في العالم ككل".

واضاف رابين ان "الموجة الخمينية البشعة، ومن دون الخميني، في العالم العربي (...) وهي اكبر خطر على الاستقرار والهدوء والسلام في الشرق الاوسط. ." وقارن بين الحرب في الماضي ضد النازية والشيوعية بالحرب الراهنة ضد "وباء الخمينية". وتابع ان المطلوب "انشاء تحالف جديد من العالم الحر ضد الخمينية بكل مظاهرها. .".

ان تصعيد سياسية التطويق العسكري والاقتصادي الاميركية-الاسرائيلية ضد ايران اضعفت ان لم تنهي ما تبقى من أمل عند بعض الاوساط الايرانية الحاكمة في امكانية كسب واشنطن. الامر الذي يعكسه اعلان قائد حرس الثورة الايرانية محسن رضائي للمرة الاولى (2/5/95) ان "لا مفر" من مواجهة عسكرية مع الولايات المتحدة. وقال رضائي ان "كل المؤشرات تظهر ان الولايات المتحدة تقوم بالتحضير لحرب ضد ايران".

كما كشفت صحيفة "الجمهورية الاسلامية" الايرانية ان "مجموعات خبراء تدرس منذ اسابيع عدة الاجراءات التي يجب اتخاذها ضد الولايات المتحدة" للرد على حظر محتمل ومواجهة عواقبه.

واضاف رضائي ان "على كل القوى العسكرية والميليشيات الثورية ان تستعد لهذه المعركة". اذ "لا مفر من المواجهة مع الولايات المتحدة".

وقبل ذلك ادلى جواد لاريجاني نائب رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشورى (البرلمان) ومستشار الرئيس هاشمي رفسنجاني بتصريحات نشرتها وكالة "سكايز هاورد" للأنباء في الولايات المتحدة (26/10/1994)، تعكس تحولا واضحا نحو العراق، حيث قال : ان "ايران والعراق سوف يهيئان السياق "في المستقبل" لقرارات رئسية تتعلق بالقضايا الرئسية في الخليج". واضاف لاريجاني الحاصل على الدكتوراه في الرياضيات من جامعة بيركلي الامريكية الشهيرة انه ليس هناك بلد في وضع افضل من ايران لمساعدة العراق في اعادة بناء اقتصاده الذي يعاني الامرين من اثار الحرب والمقاطعة الاقتصادية. وقال: ايران تفهم جيدا ويمكنها التعامل مع نظام صدام حسين "بالنسبة للنظام الحالي-وكما يقول المثل الايراني- لايوجد لون بعد الاسود".

وقد اعطى لاريجاني مبررات اخرى لأهمية التحالف الايراني-العراقي منها التصدي للجهود الامريكية الرامية للظفر بقاعدة عسكرية في الخليج. ورغم ان الايرانيين لايبدون سعادتهم بوجود صدام حسين ونظامه بالحكم في العراق فانهم على قناعة تامة بان يده المطلقة في بغداد هي ضرورية للحفاظ على العراق من ان يتشرذم. ويقول لاريجاني "في السياسة عليك ان تعيش مع من لاتحب". وحذر لاريجاني من اندلاع حرب اهلية في العراق على الطراز اليوغسلافي اذا ما تفكك العراق الى مجموعات اثنية صغيرة. وستندلع هذه الحرب للسيطرة على المناطق الاغنى بالنفط وقال لاريجاني معلقا على هذا الاحتمال "لأمننا ومصالحنا القومية ليس هناك امر اكثر حيوية من وجود

نظام مستقر ومزدهر في بغداد يكون قادرا على الدفاع عن سيادة ووحدة البلد ضد العديد من التدخلات الاجنبية". وعبر لاريجاني ان العراق قد اصبح ضعيفا للغاية بحيث انه لا يشكل خطرا على ايران.

وقد جاءت تعقيبات المسؤول الايراني في اعقاب تصريحات ادلى بها وزير الخارجية الامريكي وارن كريستوفر الى صحيفة "الولايات المتحدة اليوم" (24/10/1994) وربط فيها بين رفع العقوبات الاقتصادية عن العراق وبقاء صدام حسين في السلطة. وقال كريستوفر "بصراحة متناهية ليس بامكانه -صدام- ان يمتثل للقرارات الدولية وان يبقى في السلطة".

وأكد كريستوفر ان الولايات المتحدة تشدد على الامتثال الكامل للقرارات الدولية وانها لا توافق على تخفيف اي شرط. وقال "لقدخضنا حربا مع صدام حسين، ولقد فقدنا عددا من الارواح الامريكية لضمان رد اجتياحه للكويت، وليس لدينا سبب لتقديم جزره له".

- ويبدو ان ايران قد يئست من امكانية قيام معارضة عراقية قوية يمكنها الاطاحة بصدام وتحافظ على وحدة البلاد بذات الوقت، بما يمنع من اندلاع خطر "الانفصال" الكردي في ايران، او هيمنة امريكا المباشرة على بغداد.

- توصل طهران الى قناعة بان الطريق الامريكية غير سالكة، يجعل الخيار العراقي ضرورة لايران. وفي هذا الصدد تقارب الواقع راغدة درغام (الحياة 26/5/1995) القربية من كواليس الامم المتحدة في قولها: "اما ايران، فان سعيها للتطبيع مع العراق يبدو في فائق المنطق الصحيح المبني على مصالحها. فالعراق هو الضعيف في المعادلة. والعراق الضعيف يعني عمليا ايران قوية. واذا امكن تحييد العراق، ان لم يكن ضمه الى جانب ايران، فهذا بحد ذاته انجاز لطهران. لذلك ان الاستعداد العراقي للتطبيع مع ايران ورقة ثمينة ان كان لجهة "تخويف" بقية دول المنطقة من حجم الدولتين معا، او كان لجهة نسف "الردع" لاحياء عنصر القوة الشيعية في المنطقة، او لمجرد تحدي معادلة "الاحتواء المزدوج" الامريكية واجبارها على اخذ امكانية قيام محور طهران-بغداد في الاعتبار. فايران رابحة من التطبيع بغض النظر عن الاعتبارات العراقية".

- ان السوق العراقية ستعطي الاقتصاد الايراني، الذي وصفته صحيفة "كيهان" الايرانية (29/1/1995) بانه في طريقه الى "كارثة" جرعة هو بامس الحاجة لها.

- كما توفر العلاقة الخاصة التي طورتها ايران مع الاوساط الكردية العراقية عتلة سياسية فاعلة، لا تقل اهمية عن ورقة "المجلس الاعلى للثورة الاسلامية في العراق" بقيادة السيد باقر الحكيم في مقايضتها مع "مجاهدي خلق" المدعومة عراقيا.

فاذا ابدت طهران استعدادا لان تلعب دور الضامن لعلاقة ايجابية بين بغداد وطرف كردي (تتمتع طهران بعلاقة جيدة الان مع جلال الطالباني)، فسيكون من الصعب على بغداد الاصرار على حرية منظمة "مجاهدي

خلق".

ومن هنا يصبح اللجم المشترك من قبل طهران وبغداد، للمجلس الاعلى للثورة الاسلامية وحزب الدعوة من جهة ولمنظمة مجاهدي خلق من جهة اخرى، صفقة متوازنة. علما ان كلا المعارضة المدعومة عراقيا (مجاهدي خلق)، وتلك المدعومة من قبل ايران لم تخف رغبتها في كسب رضا امريكا. اضافة الى مصلحة ايران في التخلص من العبء البشري للاجئيين العراقيين في ايران.

وعلى الصعيد الاقليمي من مصلحة ايران ابعاد العراق عن اسرائل والتسوية السلمية بين الدول العربية واسرائيل. وتصاعد وتيرة المفاوضات السورية الاسرائلية قد تدفع طهران الى التعجيل بالتفاهم مع بغداد.

ما الذي تغير في بغداد ليجعل التحالف مع ايران ممكنا؟

ان توصل بغداد الى قناعة بصعوبة ان لم يكن استحالة التفاهم مع واشنطن، على الاقل لغاية نهاية عام 1996، موعد الانتخابات الرئاسية الجديدة، هو العامل الحاسم والجديد في موقف بغداد.

فقد سعت بغداد لكسب ود واشنطن بشكل او بآخر، وتفاءلت بمجيء كلينتون للرئاسة لاعادة تلك الصلة الايجابية.

كتب د. نديم الياسين، سفير العراق في المغرب، (القدس العربي، 17/18/4/ 1993) ردا على كاتب هذه السطور قائلا: (الدكتور العطية . . . يدعي ان العراق يسعى لكسب رضا واشنطن خاصة بعد استلام كلينتون الرئاسة . . واذا كان الدكتور العطية يأخذ على السياسة العراقية انها تريد ان تفتح صفحة جديدة مع ادارة الرئيس الامريكي الجديد كلينتون . . فهذا ليس عيبا، فالادارة الامريكية الجديدة لاتتحمل تبعات جرائم العصر التي ارتكبها جورج بوش بحق العراق والامة العربية وهي ليست معنية على حد ما اعلن ونشر الى حد الأن بالعوامل والاحقاد الشخصية التي جعلها بوش قاعدة لسياسته وعدوانه وبالتالي فأن من حق العراق بل من واجبه ان يظهر حسن النية وان يتصرف من موقع المسؤولية باعتبار ان ما حصل هو نتاج سياسة هوجاء وحاقدة لرئيس امريكي معين . . وليست هي حرب داحس والغبراء بين الشعب الامريكي وشعب العراق.)

كان طارق عزيز المنظر الاساسي للتقارب الامريكي العراقي خلال السبعينات، وجاءت الحرب العراقية الايرانية لتوطد التقارب العراقي الامريكي، مما كرس طارق عزيز مهندسا للدبلوماسية العراقية.

كان من الطبيعي ان تقع على كاهل طارق عزيز مهمة تجاوز العراق لازمة العقوبات الدولية التي فرضتها الامم المتحدة. وقد ادار عزيز معركته الدبلوماسية انطلاقا من ضرورة اصلاح ذات البين مع الولايات المتحدة.

فأكد عزيز في اكثر من مناسبة رغبة العراق في الحوار مع واشنطن والاستعداد للتفاهم، وانتدب نزار حمدون سفير العراق السابق في واشنطن وصاحب العلاقة الجيدة بالاوساط الامريكية مندوبا للعراق في الامم المتحدة لهذا الدور.

وذهب طارق عزيز الى اكثر من ذلك بالتلويح باستعداد العراق قبول التسوية السلمية بين العرب واسرائيل، كما تؤكد مصادر اسرائيلية تسلمها اشارات واضحة من بغداد للتقارب مقابل دورها في الضغط على واشنطن لفك الحصار.

كما لوح طارق عزيز بدور العراق في الوقوف بوجه الاصولية الاسلامية بامل كسب الغرب وامريكا.

واخيرا وليس اخرا، عرض النفط العراقي للشركات الغربية بما فيها الامريكية للاستغلال التجاري المغري بامل كسب تجاوب امريكا بتخفيف الحصار.

وانسجاما مع هذا التوجه كان طارق عزيز مع الاستجابة لقرارات الامم المتحدة كشر لابد منه، بهدف تعزيز الثقة.

ان ابعاد طارق عزيز مؤخرا عن ملف الامم المتحدة والسياسة الخارجية ورفض بغداد لقرار 986 الذي كان لطارق عزيز دورا فاعلا في التفاوض بشأنه يعكس تصلبا عراقيا مغايرا لنهج طارق عزيز في التقرب من واشنطن، ويصب عمليا في خانة تيار الصقور الجديد في بغداد.

لقد افرزت احداث ماقبل حرب الخليج ومابعدها ملامح تيار مغامر، يتمثل ببعض أقرباء صدام حسين، وبالذات علي حسن المجيد (وزير الدفاع)، وحسين كامل (وزير الصناعة والتصنيع العسكري)، وعدي وقصي صدام حسين الذين كانوا من المتحمسين لغزو الكويت وعدم الانسحاب. ولكن هزيمة العراق العسكرية لم تنه او تسقط دورهم بسبب دورهم الفاعل في قمع انتفاضة اذار 1991 خاصة علي حسن المجيد بما جعل منه منقذا للنظام. وبأزدياد الهاجس الامني لدى صدام حسين زادت اهمية هذه الشخصيات.

قبل أزمة الكويت لم يكن لهذا التيار دورا مهما في رسم السياسة الخارجية العراقية، ولكن الامر اختلف بعد الحرب.

بمجيء فرق التفتيش التابعة للامم المتحدة الى العراق خرجت اللعبة الدبلوماسية من يد طارق عزيز، حيث وقعت مسؤولية التعامل مع اللجان على حسين كامل، الذي سلك طريقا اتسم باللف والدوران بأمل انهاك اللجان وحماية منشآت واسرار العراق العسكرية، مما اساء لجهود طارق عزيز في بناء الثقة بين بغداد والامم المتحدة ومن وراءها الولايات المتحدة، كما تكرس في قرار 715.

وذات المشهد تكرر في رفض بغداد تنفيذ قرار 833 الخاص بترسيم الحدود واللجوء الى استخدام التحشيد العسكري (باشراف وزير الدفاع علي حسن المجيد) في اكتوبر 1994 على الحدود الكويتية، لينتهي الامر بتراجع بغداد على يد الوزير الروسي كوزيريف الذي وصل بغداد برفقة طارق عزيز ليمرر قبول العراق القرار 833.

واخيرا وليس اخرا، موقف عدي صدام حسين، المشكك في نهج طارق عزيز وانتقاده المستمر للدبلوماسية العراقية على صفحات جريدة بابل.

ومع ذلك ما كان لهذا التيار ان ينجح لولا التصلب الامريكي الذي اسقط رهان طارق عزيز.

- لقد اصبحت موارد النفط هي المصدر الاساسي الذي يعول عليه العراق للخروج من أزمته المالية في المستقبل، واذا عرفنا ان اهم الحقول النفطية الغنية القابلة للاستثمار (مجنون، نهر عمر وغيرهما) هي قريبة من الحدود الايرانية، عندها ندرك اهمية اقامة علاقة سليمة ان لم تكن تحالفا بين البلدين. ان منطقة الاهوار المشتركة بين البلدين كانت ولاتزال مصدرا للتدخل الايراني في جنوب العراق.

- ان تصاعد الدور الايراني في كردستان العراق سيكون بدون شك اداة ردع للدور الاسرائيلي والامريكي هناك، خاصة بعد تأكد بغداد من صعوبة خروج تركيا عن الارادة الامريكية.

الولايات المتحدة وامكانية التحالف العراقي الايراني

اعتمدت واشنطن سياسة الاحتواء المزدوج عن قناعة تامة بان الطريق بين بغداد وطهران سيبقى مقطوعا نتيجة التراكمات والارث السلبي الكبير، اضافة الى استمرار كل منهما في السعي لكسب واشنطن. واعتبرت واشنطن استمرار الاحتواء طوال السنوات الخمس الماضية دون تقارب بين بغداد وطهران دليلا على سلامة تقديرها. قال وزير الدفاع الامريكي، وليام بيري، (الحياة 26/5/1995) لا ارى ان هناك "ادلة" بان العراق وايران على و شك تشكيل حلف او تقارب جدي او تعاون ملموس يهدد المنطقة او سياسة "الاحتواء المزدوج" بحد ذاتها، واذا حدث ذلك، فباعتراف وليام بيري، من شأنه ان يشكل "خطرا".

ومع ذلك قد تعتقد واشنطن ان صدام حسين معرض للسقوط قبل ان تثمر الاتصالات العراقية الايرانية، وحتى في حال بقاء النظامين فسيبقى بيد امريكا القدرة على التلويح لاحد الطرفين بـ "جزرة " مغرية لتبعده عن الاخر.

وختاما اذكر ما كتبته في ختام مقالي حول الموضوع قبل اكثر من عامين:

(ان ضخامة الطاقات التي يمكن ان يفجرها التحالف الاسلامي العروبي، من خلال تحالف العراق وايران هي اكبر من اي اعتبار ثانوي، طائفي او عرقي او شخصي. ومع ذلك يبقى السؤال هل بمقدور اصحاب الشأن في العراق وايران تحقيق مثل هذه القفزة؟)

(الملف العراقي، العدد 42 - حزيران 1995)

❋ ❋ ❋